﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

[الممتحنة: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ردُّ آخرِ السّورةِ على أوّلِها من بديعِ المناسبة الكاشفةِ عن ترابُطِ موضوعِها

لمّا ختم الله تعالى الآية السّابقة بصفتي المغفرة والرّحمة، وكان ذلك قد يُظَنُّ به التّساهل في محاباة المؤمنين لبعض الكفّار ناسب أن يذكر الله ﷻ الأمرَ بالبراءة من كلِّ عدوٍّ ردًّا لآخر السّورة على أوّلِها، وتأكيدًا للإعراضِ عنهم وتنفيرًا من تولّيهم كما أفهمته آية الامتحان وآية المبايعة فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[1]، وبعد أن استقصت السّورة إرشادَ المؤمنين إلى ما يجب في المعاملة مع المشركين جاء في خاتمتها الإرشادُ إلى المعاملة مع قومٍ ليسوا دون المشركين في وجوب الحذر منهم، وهم اليهود فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَضِبَ﴾: يدور معنى الغضب على الشّدّة والقوّة. وأصلُ الكلمة من الغَضْبَةِ، وهي الصَّخْرَةُ الصُّلْبَةُ. قالوا: ومِنْهُ اشْتُقَّ الغَضَبُ[3]؛ لأَنَّهُ اشْتِدادُ السُّخْطِ، والغضب ضدَّ الرّضا[4]. وهو ثَوَرانُ دم القلب إرادةَ الانتقام[5]، أو يقال: هو امتلاءُ النّفس بالحِدَّة والجفاء لأمرٍ ما[6]. وإذا وُصف الله تعالى بالغضبِ فالمراد به

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 526 - 527.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 169.
(3) ابن فارس، المعجم الاشتقاقي: (غضب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عضب).
(5) الراغب، المفردات: (عضب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غضب).

الانتقام دون غيره[1]. ونقل عن ابن عرفة: أنَّ الغَضَبَ مِنَ المَخلوقينَ شيءٌ يُداخِل قُلوبَهم؛ ومِنه محمودٌ ومذمومٌ، فالمذمومُ ما كان في غيرِ الحقِّ، والمحمودُ ما كانَ في جانِبِ الدّينِ والحقِّ؛ وأمّا غَضَبُ اللّهِ فهو إنكاره على مَنْ عَصاهُ، وسخطُهُ عليه وإعراضُه عنه ممّا يقتضي معاقبتَه له[2].

2) ﴿يَئِسُواْ﴾: اليأسُ: قطع الرّجاء[3] وانتفاء الطّمع[4]، وفيه معنى القنوط[5]. واليأسُ: شعور حادٌّ بتمام استغلاق السّبيل نحوَ خير معيّن، يَصحَبُه سخط، ويتبعه إعراض تامٌّ عن المحاولة[6]، يقال: أيِسَ يَيأسُ، والمصدر: اليأسُ والإياسُ، وقد استَيْأسَ وأيْأستُهُ. واسمُ الفاعل منه يائِسٌ. وصيغة المبالغة: يَئِسٌ ويَؤوس[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كـلُّ عـمـلٍ فيه شـبـهـةُ تـولٍّ للكافرين عمومًا فـمـآلُـهُ عظيمٌ وبقاؤُه وخيم

ختم اللّه تعالى هذه السّورةَ بما بدأ به أوّلَها بالنّهي عن موالاة الكافرين عمومًا، فخاطَبَهم بوصف الإيمان، وأمَرَهم أن لا يَتولَّوُا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللّهُ عليهم لكُفرِهم، الَّذين قد يَئِسوا مِن ثوابِ اللّهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ كَما يَئِسَ الكفّار الأحياءُ من موتاهم الَّذين في القبور أن يرجعوا إلى الدّنيا أحياءً، أو كما يئس الكفّار من بعث موتاهم؛ لأنَّهم لا يعتقدون ببعثٍ ولا نشورٍ[8]. وعلى القولِ بأنَّ المراد من الكفّار اليهودُ أو أهلُ الكتاب مطلقًا يكون المعنى: يا أيّها الَّذين آمنوا لا تتولَّوا قومًا مغضوبًا عليهم، قد يئسوا من أن يكون

(1) الراغب، المفردات: (عضب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يئس).
(4) الراغب، المفردات: (يئس).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (يئس).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (يئس).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (يئس).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 241.

لهم حظٌّ في الآخرة؛ لعنادهم رسولَ الله ﷺ المنعوتَ في التّوراة، المؤيَّدَ بالآيات، كما يئس الكفّار من موتاهم من أن يبعثوا ويرجعوا أحياءً أو من أن ينالوا خيرًا منهم[1]. وجاء في سبب نزول الآية أنَّها نَزَلتْ في ناسٍ من فقراء المسلمين كانوا يُخبِرونَ اليهودَ بأخبار المسلمين يتوصّلون إليهم بذلك، ويتقرّبون به إليهم عن غفلةٍ منهم وقلَّةِ حذرٍ؛ ليصيبوا بذلك من ثمارِهم؛ فَنَهاهُمُ اللهُ ﷻ عن ذلك، ونبَّهَهم إلى أنْ لا يتولَّوهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ جُملةِ الاستئناف:

استئنافُ المعاني في ختام السّورةِ ترسيخٌ لِما بَدَأتْ به

جاءَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استئنافًا لبيان النّهي عن تولّي الكافرين الَّذين غضب الله عليهم، فإنَّه بعد أن بيّن مبايعة النّساء استأنَفَ فبيّن لجميع المؤمنين وجوبَ تركِ تولّي من غضب الله عليه، فيكون في الاستئناف عودٌ على ما بدأت به السّورة في تركِ اتّخاذ عدوّ الله أولياءَ لغضب الله عليهم؛ فجاء ختام السّورة بجملةٍ مستأنفة تَنهى عن تولّي من غضب الله تعالى عليه، كما بُدِئَتْ بنهي المؤمنين عن موالاة أعداء المؤمنين من الكفّار والمشركين، وبهذا لا يكونُ للمؤمنين ولاءٌ مع جميع أهلِ العداوة لله وللمؤمنين.

دلالةُ نداءِ المؤمنين في الخِتام:

النِّـداءُ الأخـيرُ وصيَّةٌ للمؤمنين بـالـبـقـاءِ على الجادَّة

استعمَلَ النّظم الكريم أسلوبَ النِّداء؛ لإشعار المؤمنين بأهمّيَّة ما يُنادى به في ختام السّورة؛ للإعلام به وإشهارِهِ بين جميع المؤمنين المخاطبين، نداءً أخيرًا آخِذًا وصيَّةَ المؤمنين أن يكونوا على الجادَّة في أن يكون ولاؤهم لله تعالى، وتركِ ما سواه. ولمّا جاء النّداءُ خطابًا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 207.

(2) الواحدي، أسباب النزول، ص: 425، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 78، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 169.

للَّذين آمنوا أفادَ توجُّهَ الخِطابِ لجميع المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وفي جميع أحوالِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

تحقُّقُ الإيمان ورِفعةُ المتَّصفينَ به

أفاد التّعبير بصيغة الماضي للفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ أنَّ الخِطابَ لِمن تحقّق منه الإيمان، ففيه رفعةٌ لشأنِ من يُخاطَب بهذا الخِطاب لشهادة الله تعالى له بالإيمان، وتلذُّذٌ للمؤمنين بوصفِهم في خطابِ الله لهم بوصف الإيمان[1].

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ كلٌّ لا يَتجزّأ، وسلوكٌ لا يَغيب، فمَن آمَنَ فقد آمَنَ بكلِّ الأركان

جاء الفعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ مطلقًا غيرَ مقيَّد في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فأفاد الإشعارَ بأنَّ الإيمان كلٌّ لا يتجزَّأ، وأنَّ المقصود مَن صحّ إيمانُه بإقرارِه بأصول الإيمان كلِّها، فدلَّ على عموم الإيمان بالأركان والأصول، كما أنَّ إطلاق الفعل دلَّ على أنَّ المخاطَبين قد تحلَّوا بالإيمان سلوكًا عمليًّا في الحياة، فهم آمنوا فعلًا وقولًا وتصديقًا، فأصبح الإيمان سجيَّةً لهم، وحذفُ متعلّق الإيمان مِن أدلّة البلاغة العالية على أنَّ الإيمان تصديقٌ وقولٌ وعمل، لا مجرّدُ تصديقٍ مُستكنٍّ في فضاءِ القلوب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

الإيمانُ علَّةُ عدمِ موالاةِ المغضوبِ عليهم

أفاد مجيءُ الموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بيانَ وجهِ بناءِ الخبر وعلّته؛ بمعنى: أنَّ إيمانَهم بالله يقتضي أن لا يتولَّوا قومًا غضب الله عليهم، ففيه إشارة إلى مُنافاةِ الإيمانِ باللهِ لتولّي مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عليه. وفي التّعبير بالموصول وصلتِه إشارةٌ إلى أنَّه لا يتأتّى من الَّذين آمنوا سوى الامتثالِ لهذا النّهي بالكفِّ عن تولّي هؤلاء القوم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ القوم:

لَحظُ الأنباهِ إلى أنَّ القوم قاموا على غضب الله

لمّا كان لفظُ القوم يدلُّ على الجماعةِ من النّاس الَّذين فيهم شدّةٌ وقوّة، بحيث يقومون بالأمر، وتَجمَعُهم جامعةٌ يقومون لها أفاد التّعبير بلفظ (قوم) في قوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا﴾ النّهيَ عن تولّي أيِّ صنفٍ من النّاس موصوفين بغضب الله عليهم، وإن كانوا أقوياءَ وأشدّاءَ، وتَجمَعُهم جامعةٌ فيما بينهم، فيكون النّهي عن تولّي غيرِهم من باب الأولى[1]، ففيه لَحظُ الأنباهِ إلى أنَّهم قاموا على ما يُغضب الله تعالى، ومن كانوا كذلك فالبراءةُ منهم هي مقتضى الإيمان.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوْمًا﴾:

مَن عرَّضَ نفسَهُ لغضبِ الله كان حقيرًا مَهينًا، وعاشَ في ذِلَّةٍ وهَوان

نُكِّر لفظُ ﴿قَوْمًا﴾؛ للإيماءِ إلى ازدراءِ هؤلاء القوم لِغضبِ الله عليهم وهوانِهم، وأنَّهم – حيث كانوا ومهما تَقَوَّوا واشتدّوا – هم في صَغارٍ وذِلَّةٍ وهوانٍ[2]، وليَعُمَّ كلَّ قومٍ هذا شأنُهم.

توجيهُ تخصيصِ صفةِ الغضبِ بالذِّكر:

اشتهارُ اليهودِ بالحَيْدِ عن الحقِّ والنُّكوصِ عنه مع علمِهم بأنَّه حقٌّ

جاءتْ جملةُ ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ صفةً للاسم النّكرة ﴿قَوْمًا﴾، والنّكرةُ فردٌ شائعٌ غير معيَّنٍ، ومن حقِّ الصِّفة أن تُخَصِّصَ الموصوفَ، فلمّا قال: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ دلَّ على وضوح المقصود وتخصُّصِ الموصوف؛ لأنَّه لمّا كان المغضوبُ عليه هو الَّذي يَعلَمُ الحقَّ ويَحيدُ عنه[3] ناسَبَ ذكرُ هذا الوصفِ دون غيرِه، ففيه إيماء إلى أنَّ الحقَّ إنّما هو في الإيمان بنبوّة سيّدنا محمَّد ﷺ، وفي كونِه هو الأسوةَ الحسنة، كما أنَّ في الوصفِ بقولِه: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارةً إلى أنَّ المراد بهم اليهودُ؛ لاشتهارِهم بالحَيْدِ عن الحقِّ مع علمِهم به، أو إلى أنَّ المراد كلُّ مَن يَعلَمُ الحقَّ ويحيد عنه؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 912.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 15.

فيشمل اللَّفظُ عمومَ طوائف الكفّار، ويدخلُ فيه اليهود والنّصارى دخولًا أوَّليًّا[1].

نكتةُ الوصفِ بالجُملةِ الفعليَّة:

أفاد مجيءُ جملة ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ صفةً لـ﴿قَوۡمًا﴾ لزومَ هذا الوصف لهم، وحسبُهم صغارًا وذلَّةً وهوانًا أن يلازمَهم غضبُ اللّهِ ويصحبَهم في كلِّ زمان ومكان. ولمّا جاء لفظُ ﴿قَوۡمًا﴾ نكرةً، وكانت النّكرةُ تدلُّ على الشّيوع وعدم التّعيين جاءت الصّفة مخصِّصةً للنّكرة، فهي بمثابة التّعيين للقوم، فكان وصفُ القوم بغضب الله عليهم كاشفًا عن هؤلاء القوم بكونِهم معيّنين بهذا الوصف الملازمِ لهم، فالصّفة قرينة دالَّة على الموصوف؛ إذ كانت مقصورةً عليه، فكان المراد من القوم اليهودَ على وجهٍ دلَّ على شهرتِهم بهذا الوصف واقترانهم به، وذلك بارتكابِهم كلَّ ما يغضب الله تعالى وإعلانهم به. وإيثارُ الجملةِ دون المفردِ لجمعِ دلالة الفعل الماضي، وذكر اسمِ الجلالة الفاعل، والقيدِ بكونه عليهم، وهو أرسخ وصفًا من الاكتفاء بالاسم.

اجتماعُ قَطْعيَّةِ الـغـضـبِ مع تعيينِ الفاعلِ وكـونِـهِ متمكِّنًا منهم

بلاغةُ استعمال حرف الاستعلاء:

أفاد حرفُ الجرِّ (عَلى) تمكُّنَ غضب الله من اليهود، فهو نازلٌ عليهم، آثارُهُ مستعليةٌ عليهم، ومحيطةٌ بهم من كلِّ جانب، فلا يوفّقون إلى أسباب الآخرة، ولا إلى طريق الجنّة، وهذه أعظمُ المصائب الَّتي يُبتلى بها العباد، وأفظعُ ما قد يحلُّ بعبدٍ؛ إذ التّوفيق والرّحمة يقتضيان سَوْقَ النّاس إلى أسباب النّجاة عند الله تعالى، لا إلى أسباب الاستزادة من عذاب السّعير.

مُكْنةُ الغضبِ تعني الإبعادَ عن أسبابِ الرَّحَمات وأبوابِ الجنّات

تنوُّعُ إعرابِ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ودلالتُه:

تَحتملُ جملةُ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أن تكون صفةً أُخرى لِلَفظِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.

﴿قَوْمًا﴾[1]، فيكون قد وصفَهم بوصفين على سبيل التّعداد من غير عاطفٍ؛ للدّلالة على قوّة كلِّ وصف واستحقاقِه أن يكون وحده كافيًا للنّهي عن تولّيهم، والوصفان متغايران في التّعلّق؛ فأحدهما يتعلَّق بحالتِهم مع الله تعالى فوصفهم بأنَّه تعالى قد غضب عليهم، والثّاني يتعلَّق بحالتِهم مع المؤمنين فوصفهم بأنَّهم لا يُرجى منهم خيرٌ ولا يَنفَعُ معهم نصحٌ ليأسِهم من الآخرة.

تنوُّعُ التَّوجيهِ النَّحويِّ في القرآن توسيعٌ في المعنى وتكثيرٌ له

كما تَحتمِلُ جملةُ ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ وذلك أنَّه لمّا كان السّامع لقولِه: ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يَتوقَّعُ بيانَ سببِ الغضبِ قال مُعلِّلًا ومُبيِّنًا أنَّه لا خير فيهم يُرجى وإن ظهر خلافُ ذلك: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾[2].

كما تَحتمِلُ أن تكون الجملة حالًا من ﴿قَوْمًا﴾[3]؛ فإنَّه بعد أن وصف القوم بقولِه: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وخَصَّصَهم بالوصفِ ذكَرَ حالَهم اللّازمة غيرَ المنتقلة فقال: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾.

دلالةُ الإيماء والتَّعريضِ بالتَّهديد:

من يتولَّ المغضوبَ عليهم فمعرَّضٌ لمصيرِهم دُنيا وأُخرى

اشتملت جملةُ ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ إيماءً إلى أنَّ من يتولّاهم يكونُ حالُه مثل حالِهم في الحرمان من خير الآخرة، والمعنى: فاحذَروا - أيُّها المؤمنون - أن تَوَلَّوهم، فتوافِقوهم على شَرِّهم وكُفرِهم، فتُحرَموا من خيرِ الآخرةِ كما حُرِموا[4]، مع ما فيها من التّعريض بالتّهديد، كما أنَّ مجيء الصّفة الأولى ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فيها إيماءٌ إلى أنَّ من يتولّاهم يَغضَبُ الله عليه.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 71، والصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 71.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 858.

دلالةُ حرفِ التَّحقيق:

أفاد حرف التّحقيق ﴿قَدۡ﴾ الدّاخلُ على الفعل الماضي ﴿يَئِسُواْ﴾ تأكيدَ يأسِهم من الآخرة وتقريرَه، فمن مات مغضوبًا عليه فهو آيسٌ من رحمة الله تعالى.

العَجَبُ مِن تولّي قومٍ تحقَّقَ يأسُهم مِن رحمةِ الله

دلالةُ لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ بينَ الكناية والمجازِ المرسل:

إن كان المراد من القوم الَّذين غضب الله عليهم عمومَ طوائف الكفّار كان المرادُ من يأسِهم من الآخرة في قولِه تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عدمَ اعتقادِهم بها وبوجودِها أصلًا؛ بمعنى: أنَّ الكفّار على يقينٍ بعدم وجود الآخرة؛ لأنَّ اليأسَ من الشّيء يدلُّ على انقطاع الطّمع في حصولِه، فإن علِّقَ بذاتٍ كان دالًّا على عدم توقّع وجودِها. وإن كان المرادُ من القوم اليهودَ - كما جاء في سبب نزول الآية - فإنَّهم لمّا كانوا لا يُنكرون الآخرة كان معنى يأسِهم من الآخرة كنايةً عن الإعراض عنها وإهمالِهم الاستعدادَ لها بالغفلةِ عنها وارتكابِ ما يوقِعُ غضب الله عليهم، فكأنَّهم آيسون منها ومن أن يكون لهم حظٌّ فيها[1]، أو يقال: إنَّ يأسَ اليهود من الآخرة لا يُقصَد به عدم الإيمان بالآخرة؛ لأنَّ اليهودَ طامعون في الآخرة؛ لاعتقادِهم أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ تمسُّكَهم بشريعةِ موسى ينفعُهم يوم القيامةِ، فلا يكونون آيسين، بل يعتقدون أنَّ نعيمَها خاصٌّ بهم، فيكون إسناد اليأسِ إليهم على طريق المجاز المرسل[2]، ويكون المراد باليأس مآلَهُ، وهو الحرمان؛ أي: قد حرموا من ثواب الآخرة ونعيمها والسَّعادة فيها[3].

اليأسُ مِن الآخرة إمّا كنايةٌ عن الإعراض عنها لإنكارِها، أو مجازٌ بحملِ اليأس على الحرمان

بلاغةُ الاستعارة في مفردةِ اليأس:

ذهب ابن عاشور إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جاء

اليائسُ مِن الآخرة ينقطعُ رجاؤه منها، فلا يراعي خيرًا في الدّنيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 170.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 220.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 93.

على طريق الاستعارة؛ إذ استعير لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ لمعنى الإعراض عن الآخرة، بقصد المبالغةِ في بيان إعراضِهم عن الآخرة؛ فكأنَّه قد انقطع طمعهم فيها، فلا يراعون خيرًا في الدّنيا، ويخوضون في ارتكاب القبائح فيها، ولهذا غضب اللّه عليهم.

وجاءت الاستعارة تصريحيَّةً بتشبيه إعراضِهم عن الآخرة باليأس منها وانقطاع الرّجاء فيها بجامع عدم الانتفاع بها، كما أنَّ في استعارةِ لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ مشاكلةً في اللَّفظ[1] لقولِه: ﴿يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾؛ لأنَّ يأس الكفّار من أصحاب القبور هو على المعنى الحقيقي؛ أي: بمعنى انقطاع الطّمع، سواءٌ أكان التّوجيه على معنى انقطاع الطّمع من بعثِ أصحاب القبور، أم على معنى انقطاع طمع الموتى الَّذين هم أصحاب القبور، كما تقدّم في تنوّع المعنى. وهذا الاختلاف في توجيه دلالة لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ بلاغيًّا جارٍ على مقتضيات البلاغة، فإنَّ كلَّ كنايةٍ يصحُّ توجيهُها على الاستعارة أو المجاز المرسل؛ إذ نسبةُ الكناية إلى الاستعارة نسبة الخاصِّ إلى العامِّ[2].

دلالةُ الحرف ﴿مِنۡ﴾ وأثرُهُ في توجيهِ التّشبيه البلاغيّ:

يَحتملُ الحرف ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ وجهين: الأوّل: أن تكون ﴿مِنۡ﴾ لابتداء الغاية[3]، فيكون المراد من القوم الَّذين غضب اللّه عليهم عمومَ الكفّار المنكرين للبعثِ، والمعنى: إنَّ هؤلاء القومَ المغضوبَ عليهم قد يئسوا من الآخرة وكذّبوا بها كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا ويلقوهم في دار الدّنيا؛ لأنَّه إذا مات له حميمٌ قال: هذا آخر العهد به لن يُبعَثَ أبدًا؛ أي: إنَّ هؤلاء الكفّار قد يئسوا من الآخرة كما أنَّهم لا يوقنون ببعث الموتى ألبتَّةَ، فيكون المرادُ من اليأس من الآخرة إنكارَها والتّكذيب بها.

والثاني: أنَّها لبيان الجنس[4]، فإذا كانت ﴿مِنۡ﴾ لبيان الجنس كان الكفار هم أصحابَ القبور، وكان المراد من القوم اليهودَ. والمعنى: إنَّ هؤلاء القومَ الَّذين غضب اللّه عليهم – وهم اليهود – قد يئسوا من خيرِ الآخرة ونعيمِها كما يئس الكفار الَّذين هم أصحاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 170.
(2) ابن الأثير، المثل السائر: 2/ 185.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 161، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 311، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 275.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 300، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 311، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 275.

القبور من خير الآخرة؛ أي: إنَّ يأسَ هؤلاء من الآخرة كيأس الكفّار الَّذين ماتوا وسكنوا القبور، وتبيَّنوا حرمانَهم من نعيمها المقيم، والمراد وصفُهم بكمال اليأس من الآخرة، ويكون المراد باليأس من الآخرة المعنى المجازيَّ، أو أن يكون المعنى على الكناية كما تقدَّم. وفيه تخييلُ حالهم بالموتى في صورة الآيسين من رحمة الله ﷻ[1]، ويكون مُتعلّق ﴿يَئِسَ﴾ الثّاني محذوفًا، وتقدير الكلام: كما يئس الكفّار من أصحاب القبور من خير الآخرة.

اليأسُ مِن الآخرة إمّا بمعنى إنكارِها أو بمعنى إهمالِها والإعراض عن العمل لها

بلاغةُ وضعِ الظّاهر موضعَ المُضمَر:

على القول بأنَّ المرادَ من القوم الكافرين المُكذِّبون بالآخرة يكونُ ذكرُ الاسم الظّاهر ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ من قبيل وضعِ الظّاهر موضعَ المضمر؛ لأنَّ الكلام بتقدير: قد يئسوا من الآخرة كما يئسوا من أصحاب القبور أن يُبعثوا، وسببُ العدول إلى الاسم الظّاهر بيانُ أنَّ كفرَهم هو الَّذي أيأسَهم[2]، فيكون وضعُ الظّاهر موضع المضمر بقصدِ الدَّلالة على سبب الحكمِ وعلّتِه.

الكفرُ بالله هو السَّببُ في إنكار الآخرة وعدم اعتقادها

بلاغةُ التّشبيهِ ودلالتُهُ:

إن كان المرادُ من القوم الكفّار المكذّبين بالآخرة يكون قد شبَّه يأسَهم من نعيمِ الآخرة بسبب تكذيبِهم بها بالقوم الَّذين يئسوا من بعثِ الموتى من أصحاب القبور، ووجهُ الشّبه عدمُ انقطاع الطّمع في حصول المأمول. وإن كان المرادُ من القوم اليهودَ يكون قد شبَّه عدمَ انتفاعِهم في الآخرة وعدمَ نيل نعيمِها بسبب غضب الله عليهم وإعراضهم عن العمل بيأسِ الكفّار المكذّبين بالآخرة من حياة الموتى؛ أي: مِن أن يُبعَثوا في الدّنيا؛ أي: كما أنَّ الكافرين موقنون من عدم رجوع الموتى من قبورهم في الدّنيا فأنتم موقنون من حرمانِكم من

يقينُ اليهودِ بحِرمانِهم من الآخرة كيقينِ الكفّار من حياةِ موتاهم في الدّنيا

(1) الطيبي، حاشية على الكشّاف: 15/ 377.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 207.

نعيم الآخرة يوم القيامة، ووجه الشّبه شدّةُ الإعراض وعدمُ التّفكّر في الأمر وعاقبتِه. وفي التّشبيه تشنيعُ المشبَّه وتقبيحه، أو يكونُ التّشبيه على معنى تشبيه إعراضِ اليهود عن الآخرة بيأسِ الكفّار من نعيم الآخرة، ووجه الشّبه تحقُّقُ عدمِ الانتفاع بالآخرة. وعلى الوجهين فإنّ المشبّه به معلومٌ عند المسلمين بالاعتقاد، فالكلامُ من تشبيه المحسوس بالمعقول[1].

دلالةُ التّعبير بصيغة الماضي:

اليأسُ في قلبِ المُنكرِ ثابتٌ راسخٌ

دلَّ التّعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ على وقوع يأسِهم من أصحاب القبور وتحقُّقِه سلفًا، ولمّا جاء قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ في مَقامِ المشبّه به، وكان الأصل في المشبّه به أن يكون أقوى وأظهر في المعنى من المشبّه دلَّ على تحقُّقِ وقوع يأسِ الكفّار من أصحاب القبور أن يبعثوا أو أن ينالوا خيرًا في الآخرة.

دلالةُ التّعبير بصيغة ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾ دون (الكافرون):

دلالةُ المبالغة في لفظِ الكفر أشدُّ، واتّساقُ اللّفظ مع السّياق أسَدّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة جمع التّكسير ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾ دون صيغة جمع المذكر السّالم (الكافرون) وكلاهما جمع (كافر)، والفرق بين الصّيغتين: أنَّ جمع المذكّر السّالم يقرّبه من الإيماء إلى الحدث والفعليَّة مع الإشارة إلى الذّوات لمجيئِّه على صيغة اسم الفاعل المشبّه به الفعلُ المضارع، بينما جمعُ التّكسير يقرّبه من الإيماء إلى الذّوات مع الإشارة إلى حدث الكفر لمجيئه بصيغة تكسير الصّيغة ممّا يدلُّ على بُعدِها من معنى الفعل؛ لتفيد صيغة التّكسير قوّةَ تحقُّقِ الوصف في الذّوات، حتّى كأنَّه إذا ذكرت الذّات لزم من ذكرها تصوُّرُ الوصف واقترانه بها، فلمّا كان الأمر كذلك كان إيثار التّعبير بلفظ ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾ في قوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 170.

﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ للإيماء إلى قوّة وصفهم بالكفرِ وتحقّقه فيهم، وهو المناسب؛ لأنَّ يكون في مقام المشبّه به.

كما أنَّ في صيغة ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾ مناسبةً لفظيّةً لِلَفظِ ﴿ٱلۡقُبُورِ﴾، ولو وُضِعَ الجمعُ الآخرُ لكان فيه ثقلٌ في النّطق، ولِما في جمع التّكسير من إيماءٍ إلى المبالغة في الكفر.

بلاغةُ الاستطراد:

على القول بأنَّ المراد في الآية هو نهيُ المؤمنين عن تولّي اليهودِ يكون في الآية استطرادٌ لطيف؛ فقد ذمَّ اليهودَ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، واستَطْرَدَ ذَمَّهم بذَمِّ المشركين في قولِه تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾[1]، وفيه إشارة إلى النِّسبةِ بين اليهود والكفّار، وذلك في معاندة النّبيِّ ﷺ وتكذيبِه، مع ظهور الآيات والأدلَّة المؤيّدة له ﷺ.

بينَ اليهود والمشركين علاقةٌ جامعةٌ في عداوةِ المؤمنين والاتّفاق على الكفر

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اليأسُ والقُنوط:

القنوط أشدُّ مُبالغَةً من اليَأس[2]، والقنوط مطلق، واليأس هو انقطاع الطّمع من شيءٍ بعينه، ولهذا عبّر باليأس في قولِه تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّ المقصود اليأس من الآخرة ونعيمها، واليأس يكون في القلب، وأمّا القنوط فهو أن يظهر على القانطِ أثرُ اليأس في الوجه والأحوال الظّاهرة، كأن يتضاءَلَ وينكسرَ؛ للدّلالة على انقطاعِ رجائِه من رحمة الله وفضلِه. والقنوط صفة الكافر[3]. كما انَّ اليأس من رحمة الله لا يتأتّى إلّا من الكافر، فالقنوط يأس

القُنوطُ أشدُّ مِن اليأسِ، واليأسُ انقطاعُ الطّمع مِن مطموعٍ بعينه

(1) ابن المنيّر، حاشية على الكشاف: 4/ 521، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 71.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 245.
(3) الزمخشري، الكشاف: 13/ 623، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 241، وابن عادل، اللباب: 17/ 155، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 18.

مفرطٌ[1]. وقد يقال: إنَّ اليأس يكون من الخير مطلقًا، وأمّا القنوط فيكون من الرّحمة[2].

القبورُ والأجداث:

القبورُ جمع قبر، وهو مدفنُ الإنسان[3]؛ أي: المكانُ الَّذي يُدفَنُ فيها الميتُ، فيستعمل في الدّلالة على مقرِّ الميت[4]، وأمّا الجَدَثُ فهو الموضع الَّذي يكون منه إخراجُ الميت لأجل البعثِ يوم النّشور يوم القيامة، والغالب فيه استعماله في القبر، فالمعنى المحوريُّ للجدث يدورُ على نَبْثِ التّراب وإخراجه بقوَّةٍ من قطعةٍ عريضة من الأرض[5]. والاستعمالُ القرآنيُّ للقبور والأجداث جاءَ على وفْقِ المعنى اللُّغويِّ، فقد استعمَلَ القبورَ في سياق الكلام عن موضعِ دفنِ الميتِ، وهمدتِه وسكونِه في موضعٍ معيَّن.

الـقـبـورُ اسـمٌ لمَدافِنِ النّاس، والأجداثُ يُلحَظُ فيها وقتُ خروج الأجسادِ وبعثِها

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 278.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 188، والسمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 59.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قبر).
(4) الراغب، المفردات: (قبر).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جدث).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"